الفصل الثاني

هل كان الإسلام هو العامل الوحيد وراء نجاح الحملة ضد الخمر؟!!

obeikandl.com

هل كان الإسلام هو العامل الوحيد وراء نجاح الحملة ضد الخمر؟!!

ينتقد علم الاجتماع والعلوم الإنسانية الأخرى بعضَ المؤرخين لاهتمامهم المبالغ فيه بالأحداث والمواقف الفريدة الهامة حتى ليجعلوها حجر الرحى في تفسير أمور جسام كقيام الأمم والحضارات وتطورها واضمحلالها، فهم بذلك يرجعون تغيرات حضارية وظواهر معقدة إلى عامل واحد، تماماً كما يفعل العوام في تفسير التغيير الاجتماعي الذي يعاصرونه بإرجاعه لسبب أو عامل واحد.

إنّ المسلم العادي يحذو حتماً حذو أولئك المؤرخين في اعتقاده بأنّ ظاهرة نجاح تحريم الخمر في المدينة المنورة تقتصر على كونها مجرد تحقيق معجزة للإسلام. فهل يا ترى نعتبر هذا الاعتقاد مبالغة في إرجاع ظاهرة اجتماعية معقدة إلى عامل واحد هو الإسلام؟

إنّ الإجابة عن هذا التساؤل من خلال الدراسات الاجتماعية الحديثة، يتطلب تحليلاً وحججاً أكثر إقناعاً من مجرد الزعم.

يرى المختصون في العلوم الاجتماعية الحديثة أنّه لا توجد نظرية فردية للتغيير الاجتماعي، كما يؤكد البعض أنّ البحث عن توضيحات أو تفسيرات شاملة للتغيير الاجتماعي قد يكون مضيعة للوقت. وبناء عليه فجميعهم يتفقون على أنّ اتجاه الفرد الاجتماعي الهام ليس أكثر من

اعتقاد خيالي. إذ إنّ السلوك الإنساني الجماعي أكثر تعقيداً من أن يقوم علماء السلوك بملاحظة أسباب معزولة منفردة تتبعها تأثيرات فردية أو جماعية معزولة، إذ إنّ للأسباب نفسها أسباباً، ونتائجها لها تأثيرات أخرى قد تصبح بدورها أسباباً لنتائج أخرى في الشبكة المعقدة للبنية الاجتماعية.

بهذه النظرة الحديثة للتغيير الاجتماعي، هل نحن محقّون في أن نعتبر أنّ الإسلام هو العامل الوحيد أو حتى العامل الأساسي الوحيد للنجاح الكبير للحملة ضد إدمان المسكرات في المدينة؟ بدون أدنى تحيّز ديني: فإنّ الإجابة هي "نعم ومن دون أدنى شك".

هذا الزعم ليس بموقف غير المتخصص كما أنّه لا يتعارض مع اتجاه العلوم الاجتماعية الحديثة في التأكيد على تعدد العوامل المؤدية إلى التغيير الاجتماعي. فنحن حينما نتحدث عن الإسلام كعامل وحيد في هذا التغيير، فهل نتحدث عن أثره في إحداث تغييرات جوهرية هامة في حياة الجاهلية من العرب بنقلهم من عبادة الأوثان والسجود لآلهة من الحجارة ينحتونها بأيديهم إلى الإيمان المطلق الصادق المقرّ بالوحدانية والشهادة بأنّ "لا إله إلا الله" ربّ السماوات والأرض؟ أم أننا نتحدث عن التأثير الكبير لشخصية النبي ﷺ التي هي من أكبر الأدلة على صدق الوحي الذي تلقّاه، والذي كان موضع محبة وتوقير من أصحابه بصورة لم تتحقق لبشر آخر غيره، حتى أنّ إيمان الفرد لم يكن ليكتمل حتى يكون الرسول أحبّ إليه من أهله وماله ونفسه والناس أجمعين.

أم أننا نتحدث عن الآثار البعيدة المدى للعبادات والشعائر الإسلامية التي يقوم بها الأفراد جماعات أو فرادى يناجون ربّهم في ظلمات الليل؟ فأثر صلاة الجماعة وصيام رمضان وزكوات الأموال في حياة المسلمين الاوائل واضح وضوح الشمس في وهج النهار. أم هل الحديث عن أثر القرآن وأسلوبه البلاغي المعجز الذي تحدّى به الإنسان والجنّ عن أن يأتوا بمثله والذي أصبح أسلوبه البياني المعجز؛ المقياس الأسمى للأدب العربي؟ أم هل نشير إلى النواحي الأخلاقية والشرائع التي اجتثّ بها الإسلام الحياة الجاهلية للعرب؟

وهكذا، فعندما نتحدّث عن الإسلام فإننا لا نتحدث عن عامل واحد ولا نتحدث عن "دين" بالمعنى المحدود للكلمة. فالإسلام هو منهج حياة يشمل الجوانب الروحية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والجمالية، وكل ما يؤثر على الفرد المسلم من المهد إلى القبر.

هذا بالرغم من إبقاء الإسلام على بعض النماذج الحضارية العربية، لأنّ الإسلام لم يأتِ للتغيير من أجل التغيير إلا أنّه أتى ليقيم أسلوباً جديداً للحياة وحضارة ربانية تقوم على تصوّر جديد للكون والحياة والإنسان. ولا يسعنا إلا القول بأنّ ذلك التصور الشامل لجوانب الحياة المختلفة هو الذي كان وراء هذا التحوّل المعجز في مدينة رسول الله ﷺ ووراء الامتناع الجماعي عن الخمر والتصميم على السير في هذا الطريق الطاهر دون نكوص أو رجوع.

ولكي نـــزيد هذه النقطة إيضاحاً فقد يكون من المفيد إعطاء صورة أكثر تفصيلاً لحياة العرب قبل الإسلام لنبيّن الدور النفسي الكبير الذي كانت تلعبه الخمر في سلوكهم الفردي والجماعي.

obeikandl.com